الفصل الثاني
نشأة الاستشراق

ليس من شك في أن الانتشار السريع للإسلام في الشرق والغرب لفت بقوة أنظار رجالات اللاهوت النصراني إلى هذا الدين ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته ومن بين العلماء النصارى الذين أظهروا في وقت مبكر اهتماماً بدراسة الإسلام لا من أجل اعتناقه وإنما من أجل حماية أخوانهم النصارى منه، كان العالم النصراني يوحنا الدمشقي (٦٧٦-٧٤٩م) ومن بين مؤلفاته في هذا الصدد لإخوانه في الدين النصراني كتابه (محاورة مع مسلم) وكتاب (إرشادات النصارى في جدل المسلمين) وبعض الباحثين ذهب إلى القول بأن البدايات الأولى ترجع إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي بينما يرى رودي بارت وهو مستشرق ألماني أن بداية الدراسات الإسلامية العربية في أوروبا تعود إلى القرن الثاني عشر الذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية وما ذهب إليه رودي بارت سبق وأن عبر عنه كتاب المستشرق جوستاف روجاد تاريخ الاستشراق في أوروبا من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر الذي صدر في نهاية الستينات من القرن الماضي[1].

إن الدارس لتاريخ الاستشراق يلاحظ أنه بدأ أولى خطواته في رعاية الكنيسة وأن الجيل الأول من المستشرقين كان من الرهبان والقساوسة وما زال بعضهم

(١) محمود حمدي زقزوق، الإسلامي في مرآة الفكر الغربي، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار الفكر الغربي، ١٩٩٤م) ص٢٠

حتى الآن من رجال اللاهوت وأن روح التعصب والأفكار الكنسية والنظرة إلى الإسلام نظرة غير موضوعية.

قادت الفكر الاستشراقي عبر تاريخه الطويل حتى العصر الحاضر. على أن الاستشراق مع هذا مر بعدة مراحل أو فترات تاريخية يمكن تقسيمها على النحو التالي:

المرحلة الأولى: تبدأ هذه المرحلة بفتح الأندلس وازدهار الحياة العلمية فيها وكذلك جزر البحر المتوسط وجنوب إيطاليا وتنتهي هذه المرحلة بانتهاء الحروب الصليبية.

المرحلة الثانية: وتبدأ هذه المرحلة بعد الحروب الصليبية وتمتد إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً.

المرحلة الثالثة: وقد بدأت في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي على وجه التقريب واستمرت إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

المرحلة الرابعة: وبدأت بعد الحرب العالمية الثانية وما زالت مستمرة حتى الآن وكل مرحلة من هذه المراحل لها خصائصها[١].

يتطرق كاتب آخر لنشأة الاستشراق ويقول: من المسائل التاريخية الشائكة تحديد المرحلة الزمنية لنشأة الاستشراق ويؤرخ بعض الباحثين لذلك بطغيان الأفكار الإستعمارية على العالم العربي والإسلامي ويعدونه مدخلاً للقوات العسكرية وحملاتهم الحربية. قبيل القرن التاسع عشر. بمعنى أن التغريب الفكري لم يسبق الغزو العسكري وحسب وإنما كان المظهر الفكري الذي سهل نفوذه من جهة والتبرير لأعماله والتسويغ لمفاسده من جهة ثانية. ولكن بعض المشتغلين بآداب اللغة العربية يرون أن الاستشراق بدأ من القرن السابع عشر فظهر أول كتاب في قواعد اللغة العربية لأربانيوس ليدن ١٠٢٢هـ -١٦١٣م وطبع (المجموع المبارك) في التاريخ لابن العميد سنة ١٦٢٥م مع ترجمة لاتينية وطبع

(١) محمد الدسوقي، الفكر الاستشراقي تاريخه وتقويمه، مرجع سابق ص١٩-٢٠.

حينذاك وأن أقدم المستشرقين المستغربين (يوكوك) الإنجليزي المتوفى ١١٠٣هـ -١٦٩١م تلقى العلم في أكسفورد ورحل إلى المشرق وأقام في سوريا مدة ومن آثاره طبع كتاب (مختصر الدول) لابن العبري المتوفى سنة ١٠٧٤ - ١٦٦٣م مع ترجمة لاتينية وترجم (حي بن يقظان) إلى اللاتينية وكتاب (نظم الجواهر) لسعيد ابن البطريق طبع في أكسفورد سنة ١٠٧٠هـ -١٦٥٩م وفي دار الكتب المصرية نسخ منه وخلفه مستشرق شهير في أواخر القرن السابع عشر هو (دربلو) الذي وضع في تاريخ الشرق وآدابه معجماً سماه (المكتبة الشرقية) في عدة مجلدات وهي عبارة عن دائرة معارف شرقية باللغة العربية والفرنسية مرتبة حسب حروف الهجاء، تبحث في علوم الشرقيين وتاريخهم وخرافاتهم وآدابهم ونظمهم وسائر أحوالهم الاجتماعية وعاداتهم وغيرها، طبع ثانية سنة ١٧٨٣م. ويرى الباحثون المختصون أن الاستشراق أقدم من ذلك بكثير فقد يرجع تاريخ الاستشراق في بعض البلدان الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وربما كانت هناك محاولات مروية قبل ذلك.. (وكان أن سبق بعض ملوك أوروبا باباواتها وأخذوا العربية من علماء الأندلس وصقلية وتعلم أمراء الصليب وبعض قوادهم اللغة العربية في الشام - أيام - غزواتهم الطويلة ولما قام البابوات بإنشاء الرهبنة لبث الدعوة الدينية في الشرق بدأ لهم أن يعلموا الرهبان لغاته ولاسيما العربية وبعض اللغات السامية والسريانية.. فقضى مجمع فينا ٧١١هـ-١٣١١م برئاسة الباب آكلتس الخامس أن يؤسس في باريس واكسفورد وبولون كراس.. دروس العربية والعبرانية ليتسنى لهم تدريس الطب في الكتب العربية، وفي سنة ٦٥٢هـ ١٢٥٤م أنشئت أول مدرسة عربية في (اشبيلية) من أرض الأندلس.

يقول بارت مستشرق ألماني إذا نظر المرء إلى الوراء إلى تاريخ تطور الاستشراق ولم يتردد في التبسيط رغبة في زيادة الوضوح فإنه يستطيع أن يقول أن بدايته في القرن الثاني عشر، ففي عام ١١٤٣م تمت ترجمة القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب (فيزابيليس) وكان ذلك في أسبانيا ونشأ أول قاموس لاتيني عربي في القرن نفسه وفي القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر بذل رايموندس لالوس جهوداً كبيرة لإنشاء كرسي لتدريب اللغة وكان تعليم العربية

علي عبد عربي. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة جدية بعد فترة الإصلاح الديني. ويتابع بعضهم القول في نشأة الاستشراق فيقول ولما كان القرن السادس عشر هو مسرح الإصلاح الديني في الغرب كانت نهايته بداية اتصال الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي اتصالاً اقتصادياً سواء في كشف موارده والثروة فيه أو في استغلالها ونقلها إلى الغرب في صورة تبادل تجاري، أو في أية صورة أخرى، حتى وصل منذ النصف الثاني من القرن العشرين إلى ما يصل إليه نفوذ قوى على ضعيف. لهذا فمنذ أن باشر النفوذ الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي من بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذ يعمل على تخلف المسلمين، وعلى التنفيس عن الحقد الصليبي. الاستشراق حركة أو اتجاهاً ثقافياً عالمياً فإنه يصعب تحديد بدايته، فهو كتيار فكري يشبه الأمواج التي لا تعرف الأولى فيها من الثانية ويمكن القول إن الاستشراق بدأ مبكراً قبل القرن الثالث عشر الميلادي ثم توسع واكتملت وسائله في القرن السادس عشر، ولكنه بلغ عنفوانه وقوته في أواخر القرن التاسع عشر، ثم تراجع عن شدته وحدته في العقد الخامس من القرن العشرين، وما يزال الاستشراق يعمل إلى اليوم وفي المستقبل بعنف وتطرف أقل ولكن بالتزييف والتشكيك نفسه[١].

ومن الباحثين من يرى أن الاستشراق إنما قام لمقاومة التوسع العربي والإسلامي. لقد نشأ الاستشراق لمقاومة الامتداد والتوسع العربي والإسلامي، هذا الامتداد الذي عبر إلى أوروبا وسيطر على أسبانيا واجتاح جزءاً من جنوب فرنسا حتى مدينة بواتيه أو بلاط الشهداء ونفذ إلى جزيرة صقلية وبدأ يسيطر على جنوب إيطاليا معقل المسيحية وكان نتيجة ذلك أن تألف مؤتمر فينا عام ١٣١١م الذي ترأسه الباب كليمان الخامس وتقرر فيه تأسيس مدارس خاصة في برلين وبولون واكسفورد تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخرج وعاظ يستطيعون تنصير المسلمين أو تشكيكهم في عقائدهم[٢].

---

(١) نذير حمدان، في الغزو الفكري (الطائف: مكتبة الصديق، بدون تاريخ) ص١٩١-١٩٤.

(٢) أنور الجندي، تاريخ الغزو الفكري والتغريب، مرجع سابق ص١٥٣.

ومن المؤرخين من يرجع الاستشراق إلى صدر الإسلام حيث أن كثير من الذين كتبوا عن الاستشراق يرجعون أسباب نشوئه إلى عوامل مختلفة منها احتكاك المسلمين بالرومان في غزوة مؤتة ومن ثم غزو تبوك ومن يومها وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية وهناك من يرجع الاستشراق في بدايته بدراسة العلوم الإسلامية مأخوذاً بالنتائج العلمية التي حققها المسلمون ولكنه استشراقاً عفوياً لا يضمر أي قصد سوى الاستفادة من حضارة الشرق باعتباره نموذجاً جديداً للحضارات[١].

ولذا يرى نفس الكاتب أن حركة الاستشراق بدأت منذ العصور الإسلامية الأولى حينما وصل الإسلام إلى الأندلس وأخذ نوره يضئ ظلام القلوب والعقول من هذه البقعة التي كانت غارقة في الجهل والظلمة والتخلف، فلما تفتحت عيون أهل هذه البلاد على هذا الدين وعلى المثل الكريمة التي تمثل دين الإسلام فيما يدعون إليه في مجال العلم والعقيدة واكتسح كل ما سبقه من حضارات وراع الغرب أن يكون في منأى عن تلك الصورة المشرقة فأخذ يستسقى من مناهلها، وأصبح العرب حملة مشاعل من الشرق إلى الغرب وصاروا أساتذة للأوروبيين وصارت الجامعات الإسلامية في أسبانيا تعلم الكثير من الطلبة الأوروبيين في أحضان أروقتها ليدرسوا كل أنواع العلم ووجد الأوروبيون في حضارة العرب ما يناسب احتياجاتهم ويسد الفراغ الموجود لديهم، حيث كان لها من المرونة والواقعية ما يجعلها تتناسب ورغبات الشعوب على اختلاف أجناسها وثقافاتها ولم يكتف الأوروبيون بتلقي علومهم في الجامعات الإسلامية فقد أسسوا عدة جامعات ومعاهد وكراسي لدراسة الحضارة الشرقية في بلادهم وأصبح المسيحيون في أوروبا يستقون من حضارة المسلمين شتى أنواع العلوم والمعارف والفنون ودفعهم ذلك لتعلم لغة العرب ليقتبسوا من حضارتهم وعلومهم التي ظهرت في الشرق الإسلامي فحاولوا أن يسبغوا ثقافتهم بالصبغة الشرقية الإسلامية ومن ثم عرفوا بالمستشرقين.

نصل من وراء هذا إلى أن الاستشراق قد بدأ أول ما بدأ بدراسة العلوم الإسلامية

---

(١) قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية الاقتصادية، مرجع سابق ص١٩.

مأخوذاً بالنتائج العلمية التي حققها المسلمون ولكنه كان استشراقاً عفوياً لا يعتمد على أي قصد سوى الاستفادة من حضارات الشرق باعتبارها نموذجاً جديداً للحضارات.. واهتمت الدول الأوروبية بإرسال بعثات إلى بلاد الأندلس لدراسة العلوم والفنون والصناعات نتيجة ذيوع شهرة الأندلس وحضارتها الإسلامية الزاهرة. كما بعث الملك فيليب النافارى إلى الأمير الأموي بالأندلس هشام الأول ١٧٢-١٨٠هـ يسأله السماح له بإيفاد هيئة لاستطلاع الأندلس، ودراسة نظمها وشرائعها والثقافات المختلفة فيها حتى يتمكن من نقل هذه الصورة إلى بلاده[١].

ومن الكتاب من يرجع تاريخ الاستشراق إلى ما بعد فترة الإصلاح الديني في أوروبا. يرجع تاريخ الاستشراق في بعض البلدان الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادي وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك غير أن المصادر التي بين أيدينا لا تلق الضوء الكافي على الموضوع وإن أشارت إلى بعض المستشرقين كأفراد، ويكاد المؤرخون يجمعون على ان الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة حيوية بعد فترة الإصلاح الديني كما شهد بذلك التاريخ في هولندا والدينمارك وغيرهما[٢].

يؤيد وجهة النظر هذه عمر جودة الخطيب يقول إن علماء الاستشراق يجمعون على انتشاره في أوروبا ظهر بصيغة جديدة بعد فترة ما يسمى في التاريخ الأوروبي (عهد الإصلاح الديني) ولم ينقطع منذ ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربية ويغيرون على المخطوطات العربية في البلاد العربية والإسلامية فيشترونها من أصحابها الجهلة أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم بأعداد هائلة، نوادر المخطوطات الدينية تنتقل إلى مكتبات أوروبا وبلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد وما زال هذا العدد يزداد[٣].

---

(١) عبد الكريم علي زيد، افتراءات فيليب حتى وكارل، مرجع سابق ص١٧-١٨.

(٢) محمد البهي، الفكر الإسلامي المعاصر وصلته بالإستعمار الغربي، الطبعة السادسة (مكة: الفيصلية، ١٩٧٣م) ص٥١٢.

(٣) عمر جودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م) ص١٨٧-١٨٨.

أطلقت كلمة الاستشراق على الدراسات التي يقوم بها غير الشرقيين لعلوم الشرقيين ولغاتهم وأديانهم وتاريخهم وأوضاعهم الاجتماعية ونحو ذلك. وقد بدأ الاستشراق هذا منذ أن دقت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوروبا العريضة، وكان المسلمون قد احتلوا عرش السيادة الدولية وملأوا سمع الزمان وبصره وقلبه وسائر مشاعره. وأخذت أوروبا الغارقة في الجهل والتخلف الحضاري يومئذ تبحث عن أسباب نهضة المسلمين وبلوغهم هذا المجد العظيم الذي بلغوه، وأخذ بعض رجال الكنيسة الأوربيون يدرسون علوم هؤلاء الفاتحين ولغاتهم لعلهم يظفرون بما يوقفون به هذا الفتح الإسلامي ولعلهم يكتسبون من علوم المسلمين ما ينفعهم في إنقاذهم من تخلفهم ويفتح لهم أبواب الارتقاء فكان الاستشراق طلباً لعلوم الشرقيين ولغاتهم وأوضاعهم وبحثاً عنها[١].

ومن الملاحظ أن الاستشراق بدأ بعد مؤتمر فينا الذي دعت له البابوية سنة ١٣١١م وذلك بعد أن طرد المسلمون الصليبيين من بلاد الشام نهائياً بعد سقوط عكا آخر معاقلهم في سنة ١٢٩٠م[٢].

استعرضت فيما تقدم وجهات نظر مختلفة حول نشأة الاستشراق منهم من يرد نشأتها إلى صدر الإسلام ومنهم من يردها إلى العصور الوسطى وعصر الإصلاح الديني في أوروبا وهي دراسة موسعة قصدت منها أن يلم القارئ بنشأة الحركة الاستشراقية التي اكتسحت العالم الإسلامي والعالم الشرقي بصفة عامة وقد حاولت أن أرد كل وجهات النظر إلى كاتبيها حتى يستطيع القارئ أن يرجع إلى المراجع إذا أراد المزيد من الدراسة والتتبع.

---

(١) عبد الرحمن حسن، أجنحة المكر الثلاثة ص٨٣، الطبعة الثانية (دمشق: دار القلم ١٩٨٠م).

(٢) عبد الكريم علي باز، افتراءات فيليب وكار بروكلمان على التاريخ الإسلامي، مرجع سابق ص١٨.